أستاذ حلمي

في ركن الساحة الشرقي جلس الأستاذ حلمي على كرسي خشبي متهالك، مسنِدًا ظهرَه إلى العمود الرخامي، وفي يده عصا طويلة ينكت بها في الأرض شاردًا بذهنه في عالمه الخاص.

طيف أمِّه المريضة بابتسامتها الحانية لا يفارقه، وتكاليف علاجها الباهظة تلاحقه في صحوه ومحوه، ها هو واقف منكَّسَ الرأس أمام جاره الأستاذ مدحت المحامي يستسمحه أن يمد له أجل الدين شهرًا آخر، ويشفعَ الألفَ التي تسلفها منه بألف أخرى، وها هو الشهر على وشك أن ينقضي.. "كيف سأمرُّ ببيته اليوم؟ "وماذا سأقول له إن رآني وسألني عن المال؟!" هل أقترض من صديقي الأول ممدوح"، "وهل يستطيع ممدوح أن يقرضك شيئا؟!، "ألا تعرف أنَّه يتجهّز للزواج، ويحتاج إلى كل جنيه معه؟"

آه.. الزواج ذلك الحلم البعيد المنال، لقد جرت السنون بي منذ تخرجت حتى أوقفتني على عتبة الثلاثين، ولا أمل لي في الزواج، وكيف لمدرس تاريخ بالكاد يحصل نفقاته من درسين أو ثلاثة في الأسبوع أن يفكر في الزواج، الشبكة وحدها وَهْمٌ، ممدوح اشترى لخطيبته شبكة بعشرة آلاف جنيه ورضيَت بها على مضض، عشرة آلاف جنيه! كم سنة أحتاجها لادخار هذا المبلغ؟!

لو كنتَ اجتهدْتَ قليلا والتحقت بقسم اللغة الإنجليزية مثل سعيد لكان حالك غير الحال، لكن كل شيء مقدر ومكتوب، ثم سعيد نفسه ماذا صنع بالدروس والمال.. إنه غير سعيد في حياته.. ها ها.. سعيد غير سعيد، حلوة! إنه دائم الشكوى، كل يوم عنده مصيبة جديدة، آخرها زوجته التي طلبت الطلاق منه لأنَّها لا تراه في البيت إلّا لماما، يقضي يومه كله بعد المدرسة متنقلا بين البيوت كالنحلة.. امرأة غريبة!

ليست وحدها، كل النساء هكذا، ألا ترى ما تصنعه أم حسين مع زوجها، كل يوم شجار وصراخ على مصروف البيت والدروس، بل ما فعلته هالة مع ابن خالتي الذي كان يحوِّل أمواله إليها من الكويت، لتشتري أرضًا، وحينما عاد اكتشف أنَّها

استولت على كل ماله واشترت فيلا في التجمع الخامس باسمها، ورفعت عليه قضية خلع.. لا حول ولا قوة إلا بالله، والله أنا مشفق عليك يا سيد يا ابن خالتي.

لكن.. لا.. أمِّي ليست كذلك.. أمي أعظم امرأة في العالم، وقفت بجوار أبي رحمه الله وعاشت معه على الحلوة والمرة، لم أسمعها تشتكي قط، آه يا أُمِّي.. كم أنا حزين لمرضك، شفاك الله.. ليتني أحتكم على ثروة كبيرة، إذن لأخذتك للعلاج في الخارج من دائك الخبيث، لكن ماذا أصنع؟! ما باليد حيلة، ليس أمامي إلا أن أستدين وأسدد بالقسط.

أستدين...! نعم.. ذكرتني بالديون التي عليّ، عليَّ عشرة آلاف لعمي شاكر، وألفان للأستاذ مدحت، وثلاثة لسعيد من زمن، وألفان لأبلة إلفت..

آه.. ألفت! سبحان الله ألهذا الحد هانت عليك نفسك؟ أصرت تتسلف من النساء!

وماذا في ذلك، إنها زميلة في العمل وهي الوحيدة التي قبلت أن تسلفني.

ثم ماذا كان يا بطل؟ ألا ترى أنَّها كلَّما رأتك رمقتك بنظرة احتقار!

احتقار! لا يا رجل لا تقل هذا.

هل تضحك على نفسك؟! ألم تخبر كلَّ الزملاء أنها أعطتك المال وكأنَّها تريد أن تفضحك، نعم .. إنها رأتك شخصًا هادئًا محترمًا فأرادت أن تجعلك أحدوثة وهي تأمن جانبك، وتعلم أنَّك لن تصنع شيئًا، كيف وأنت مدينٌ لها..

يا لغبائي ما الذي جرَّني لأن أستسلفها وأنا رجل عزيز النفس لا أحبُّ الإهانة من أحد، لعلي أحسست أنَّها بمنزلة أختي الكبيرة لما أبدته من تعاطف مع حالة أمي.. أجل.. أجل.. هذا ما شجعني، مع ما رأيته عليها من آثار النعمة، يقولون إنَّ زوجها صاحب مركز دروس كبير، وأنَّها شريكة له فيه، لاشك أنَّ دخلهما في الشهر يتخطى المائة ألف.

أعوذ بالله ! وما علاقتي أنا بدخلهما، أنا رجل بحالي، لا يعنيني أحد، كل ما يهمني عملي، والحمد لله ها أنذا قد عُيِّنْتُ في مدرسة حكومية بعد طول تنقل بين المدارس الخاصة، إن شاء الله أحافظ على مكاني وأحرص على سمعتي فهي رأس مالي ..

يا عيني على رأس مالي .. هل ستسد منه ديونك، أو تعالج به أمَّك، أو تتزوج به؟! إنَّها معضلة.. معضلة كبيرة .. أنا في غاية الضيق .. الدنيا كلها أبواب مغلقة.

يا أخي لماذا أنت قليل الحيلة هكذا .. قم .. انتفض .. صارع، الحياة صراع، هذا السكون القاتل لن ينفعك ..

يا إلهي .. ماذا أصنع؟!

من بعيد جاءه صوت ناظرة المدرسة صارخةً:

– أستاذ حلمي .. يا أستاذ حلمي ..

انتفض من جلسته سائرًا نحوها وهو يجيبها في ارتباك:

– نعم يا حضرة الناظرة.

– ماذا تصنع عندك والفسحة قد انتهت؟!

– معذرة يا أبلة سعاد.

– ماذا أصنع بها؟! أليس عندك حصة الآن؟!

– بلى!

– مضت عشر دقائق وأنت لم تدخل فصلك، والبنات أصواتهن بلغت الجيران.

– أنا آسف!! آسف جدًّا!! أنا ..

– أسرع إلى فصلك يا أستاذ وبعد الحصة أريدك في مكتبي.

حثَّ حلمي خطاه تجاه السلم، وصعد درجاته متقافزًا حتى بلغ الطابق الثالث، وقف لحظةً يلتقط فيها أنفاسه، ثم تحرك في تؤدة نحو الفصل.

عند الباب رأى مهرجانًا حافلا، في وسط الفصل حلقة بنات يصفِّقْنَ ويطبِّلْنَ لزميلتهن التي ترقص بينهنَّ، وفي ركنه الخلفي ثلاث بنات انهلن على زميلة لهنَّ صفعًا وركلا وهي تولول بأعلى صوتها تشتم وتتوعد بألفاظ نابية، وبين ذلك ثنائيات وثلاثيات يتجاذبن أطراف الحديث الذي يتخلله الكثير من الضحكات الخليعة.

وقف حلمي دقيقةً متحيِّرًا .. لا يدري ماذا يفعل؟ كيف يسكت هؤلاء البنات ويردُّهنَّ إلى رشدِهِنَّ؟ هل يصرخ فيهنَّ؟ هل يُعْمِل فيهن عصاه حتى يُلهِبَ أجسادَهُنَّ فيتأدَّبْنَ؟ أم هل يدخُل الفصل بهدوء ويأخذ في الحديث فتعود المياه إلى مجاريها دون عناء؟

كانت العواقب تتداعى إلى خاطره بسرعة، مترددًا، حائرًا، لو لم يسكتهنَّ الآن فسيجد الناظرة فوق رأسه، وربما تحوله إلى التحقيق ويفصل .. لكنَّ الضغط النفسيَّ كان هو صاحب القرار

.. فقد دفعه لأن يصرخ في الطالبات صرخة مدوّية حاملة كلَّ ضيقه وتوتره وحيرتِه:

– بسْ .. اخرَسْنَ تمامًا .. لا أريد أيَّ صوتٍ هنا.

وبالفعل سكتت البنات فجأة، وساد الصمت للحظات دخل فيها الأستاذ حلمي فصله، ووقف أمام طاولة المعلم، وفجأة أيضًا انفجرت البنات بالضحك الهستيري.

كان حلمي في غاية الانفعال واستفزه ضحك البنات الذي لم يجد له تفسيرًا إلا السخرية منه، ففقد أعصابه وانهال عليهن بعصاه الطويلة يضرب بها يمينًا وشمالا، والبنات يصرخن من الألم ويجرين منه هاربات خارج الفصل.

زاده هروبُهُنَّ استفزازًا فازدادت ضرباته قوةً وسرعةً وطيشًا، وجرى خلفهن خارج الفصل دون وعي، غاب عنه تقديره للعواقب، وخوفه من المجهول، لم يدر بنفسه إلا وهو يهوي بالعصا على جسد الناظرة!

***

تمت